

جعفر ججاوي

عداءٌ حولَ كفِّ أبي

منشورات تكوين | نبوءات
TAKWEEN PUBLISHING



عداء حول كف أبي

شعر

جعفر حجاوي

الكاتب: جعفر حجاوي
عنوان الكتاب: عداء حول كف أبي

X
تصميم الغلاف: يوسف عبداللّه
تضيد داخلي: سعيد البقاعي

X
ر.د.م.ك: 978-9921-775-41-9
الطبعة الأولى - يوليو/ تموز - 2022
1000 نسخة

X
جميع الحقوق محفوظة للنشر ©

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة
طفون: 965 98 81 04 40 +
بغداد - شارع المنتبي، بناية الكايجي
تلفون: 964 78 11 00 58 60 +

✉ takween.publishing@gmail. f takweenkw

com

📧 takween_publishing

📺 TakweenPH

إهداء

إلى وجه الحياة والحبّ والشعر

إليك...

فاتحة

أكتبُ الآنَ كي لا أحبُّكَ أكثرَ

أو كي أحبُّكَ أكثرَ

ليس مهمًّا

فثمَّ سكاكينُ تجرُحُ صدري

ما الصدرُ إن لم يضمَّكَ؟

ثمَّ سكاكينُ تمشي على شفطي

وما شفطاي إذا لم تقولا أحبُّكَ؟

لم تجرؤا قبلاً منكِ

رغمَ الجروحِ؟

لذا أكتبُ الآنَ كي لا أحبُّكَ

أو كي أحبُّكَ أكثرَ، ليس مهمًّا

فأنتِ كما أنتِ

ممتدَّة في ليالِ القصيدةِ

ممتدَّة في خيالِ القصيدةِ

لا تستريحُ سوى في يدك

ولا أستريح...

وحي صاعد بالحب

مَشُوا إِلَى آخِرِي فِي الْحَبِّ

واعتكفوا

هناك حيث تُصَلِّي في دمي الصَّحْفُ

على امتداد حروفِ المدِّ في نَفْسِي

وددتُ لو أَنِّي أمتدَّ

يا لَهْفُ

بيني وبين قلوبِ

كلِّما ابتسمتُ

أُتِيْتُهَا مِنْ صَحَارِي النَّفِيسِ

أَلْتَحَفُ

غسلتُ في حُلُو ما قالوا مَرَارَ دمي

حتى تقاطرَ شَهِدًا قَلْبِي

الصِّفُ

وكلِّما كنتُ أُوحَى من محبتهم

زَمَلْتُ قَلْبَ نَبِيِّ فِي يَرْتَجِفُ

تَنْزَلُوا فِي صَعِيدِ الرُّوحِ

ثُمَّ سَمَوْا

لَأَتَّهُمْ أَصْفِيَاءَ الْحَبِّ

حِينَ صَفُّوا

كَانُوا

-وقد كانت الأسماء محض صدى-

حقيقة...

واسمهم في القلب معتكف

من قبل أن تعرف الأنهار وجهتها

من بعد ما عبأوها الحب وانصرفوا

من وقتما كانت الألوان شاحبة صفاتها

والمرايا لم تكن تصف

رأيت

إذ مر بي ليل

عيونهم منقوشة

في زواياه التي وصفوا

الأصدقاء قناديلُ الوجودِ

إذا ضاقت بنا عتمةٌ،

ضاءوا بما نَزَفُوا

الأصدقاء هدايا اللهِ

يبعثها حبًّا ولطفًا

ويدعوها فتأتلُفُ

هم الذين إذا استعصتْ به لغةٌ

تدققوا أبجديّاتِ

ولم يقفوا

من حيثُ لا غيمةٌ في باله

هطلوا

من حيثُ لا شجرٌ في روحه

انقطفوا

وجوههم،

كلّما حاولتْ أقرأها

تسللت في دمي، واحتدّ بي شغفٌ

لأنّهم سرّي المفضّى علانيةً

إتي بهم أتقي قلبي وأعترفُ

خذوا خطاي إلى ما تشتهونَ

تصل؛

فإنّها لسماء الحبّ تنخطفُ

ولستُ أقنعُ أن أحيا

بذاكرةٍ من الرمالِ...

وفي التوقِ والتلفُ

أنا بما في دمي من زُرقةٍ بشرٌ

أسلّتُ ذاكرتي للحبِّ فارتشّفوا

قلبي إذا ضاقَ،

لا يأسّ ولا أملٌ

ليلي إذا طالَ،

لا سهدٌ ولا أسفٌ

ألم كلّ شتاتي

ثمَّ أعبُرْني

بملاء ما اجتَرَحوا حَبًّا وما اقتَرَفوا

وها همُّ...

كلَّما ضاقتْ عليَّ يدُ

مشوا إلى أوَّلِي في الحبِّ واعتكفوا.

إلى أبيه في جنازته

هذا هو ابنك في ملابسه

وعليه عطرُك لم يزل عبقا

هذا هو ابنك

قيل: مبتسم...

للموت يمشي واثقا لبقا

بهدوئه المعتادِ قال له:

يا موتُ حسبك

لا تكن دبقا

يدري بأن الموت يتبعه

يدري

فزين بيته حبقا

يا «طلقة» همث وهم بها

العاشقان إليهما استبقا

لا تطبقوا جفنيه فهو يرى

ما لا ترونَ

ولو يشا انطبقا

عشرونَ نافذةً موردةً

ستطلّ منها روحُه شبقا

أماكن مفتوحة لأسئلة مغلقة

- من أين يأتي الحب؟!

- «من خمير عتيق في الكلام»

تقول سيدة:

أنا جسدٌ مضيءٌ فوق ما يتصوّر الشعراء

أبحثُ عن غوايةٍ عطريّ المسكوبِ في حبرِ القصائدِ

لا أبوحُ سوى لعصفورٍ على شباكِ نسياني

وأعرفُ أنني أنثى مساءٍ ما

سأدخلُ من نوافذكِ العليّةِ

فيك

كي أوحى لفطرتكِ القصيدةَ

لا لحبِّ في الخيالِ الأنثويِّ

ولا لمكرِ العاشقاتِ

وإنما لدمي المعبأ بالصراخِ المطمئنِّ.

- من أين يأتي الشُّعرُ؟

- من حُضِنِ بريءٍ أو أتيَمِ

قُبلةٍ مقصودةٍ

لحنٍ قديمٍ رَاكِدٍ في القلبِ

رنةٍ ضحكةٍ منسيّةٍ

عطرٍ يغادرُ جسمَ فاتنةٍ

ليبحثَ في المكانِ

عن احتمالٍ باهتِ النسيانِ في قلبٍ مُعدٍّ للتذكّرِ

كي يعيدَ إليه ذاكرةً تحنُّ

ولا تفكّرُ بالتغافلِ

والتجنّي.

- من أين يأتي الشوقُ؟

- من شوكِ المسافةِ

حينَ ينبثُ في لسانِ قصيدةٍ

لكِ -يا بعيدةً عن كلامي

يا قريبةً من حطامي-

ما يشاءُ الليلُ من أرقِي

رفعتُ يدي إليكِ

وكانَ أحرى بالمنافي أن تلمَّ شتاتنا

في معطفٍ

لنسيرَ

لا خوفٌ ولا بردٌ

ولا شوقٌ طويلٌ أو قصيرٌ

كي يحرّضني على هذي القصيدةِ

أو على هذا التمنيِّ.

- «أنتم الشعراء غيمٌ مثقلٌ بالحبِّ»، قالتُ

- نحن مائيونَ

قد لا ننتمي للأرضِ

لكننا نساقطُ حبنا أبدًا عليها

ننتمي لنسائنا ودمائنا

نحنُ الحكاياتُ التي تمشي نهايتها إليها

لا نطيلُ مكوّثنا في النصِّ

ثمّة مخرجٌ...

إلا إذا شاءت حكايتنا الإطالة

نتقي الموت المطل على الرؤوس بأغنيات الأمهات

وبالمناديل الزكية حين ترفعها الحبيبات

ال«نسين» دموعهن ورحن يمسحن السماء من البكاء

بما استطعن

ونحن نحن

الواقفان على مصائدنا/مصائرنا

دم ينثال من أقدامنا

ودم على أقدامنا ينثال

لم تزل الطريق طريقنا

مذ أن تقاطع صدفة ظلي وظلك

والتفت وقلت لي:

- من أين يأتي الحب؟! ثم مشيت

- من ورد على شفة الغريبة

إذ أقبلها بلا سبب

وإذ تأتي تقول بلا مناسبة:

أحبك.

حزن قديم للعام الجديد

ضوءًا جديدًا هذه الكلمات تعبرُ في لهائك

إذ تجرُّ كلامك المنسوبَ زورًا للغيابِ

وتتبعُ الدمَ في عروق الليلِ

أسودَ يا دمَ الكلماتِ تخرجُ نحو مرثاك الأخيرِ

معبأً حزنًا

تحسُّ بلسعةِ الحبلِ المعلقِ حول قلبك وهو يرقصُ

بالزجاجِ يحزُّ معصمك المحرَّرَ من دماه

ومن أساهُ.

لحزرك الممتدِّ في شجرِ الصنوبرِ

للوسادةِ حين تحملُ -فوق طاقتها- دموعك

قل: إذا أغمضتُ عيني الآنَ ثم فتحتها ماذا سيحدثُ؟

لا انتظارك للسكونِ سيطفئُ الملحَ اشتعالاً فيك

لا لغةٌ سندهشٍ وردةٌ لتعيدَ دورتها وتنموَ من جديدٍ

لا الهدوءُ سيقنعُ اليدَ أن تصافحَ خاطري المثقوبَ بالنكباتِ

لا ثقتي بأن البحر أوسع من خيال طفولتي ستزيدُ

أعرفُ ما تقول الدربُ لي ولهُ

وأجهلُ منتهاهُ.

أنا لأسقطُ من علوِّ الغيمِ في حزني

سيلزمني غناءُ صبيّةٍ عن قلبها المكسورِ؛

كنتُ حديقةً زرقاءَ يوماً ما

أبللُ بالندى والأغنياتِ صفائري فتُضيءُ

أضحكُ ملءَ قلبٍ فراشةً فيصيرُ وجهي بركةً وريّةً

لكّني

أحببتهُ حتى تيبّستِ الورودُ على الشفاهِ

شربتهُ حتى تشققتِ الشفاهُ.

أنا لأسقطُ من علوِّ الحزنِ في غيمي

سيلزمني بكاءُ الليلِ عن أمِّ لطفليها التي هربتُ

مع الموتى:

لماذا اختارتِ النومَ الطويلَ على حليبي؟

كنتُ دفأً السريرِ كما تحبُّ رضيعتهُ

وغفوتُ قربَ هدوئها

ماذا ستفعلُ لو صحتُ يوماً هناك ولم تجدُ صوتي ورائحتي

ستعرفُ كيفَ تحكي عن فمي للموتِ

أم ستخافُ منه

إذا تراهُ.

وأنا لأسقطُ من علويّ فيّ

أحتاجُ اليدَ الـ«كتبتُ» قصائد وحدثي عن ذاتها

كيف انتهيتُ إلى يديك

وكيف دلثني الطريق

إلى اختصاري واحتضاري

ما تزالُ ملامحي لغةً مشوهةً

وصمتًا ناقصًا

أحتاجُ أجنحةً لأهويّ

فألخيالُ بُراقبيّ القدسيّ أتعبني صعودًا

والمخيلةُ التي سقيتُ بماء الغيبِ أظمأها الغياب

ولا حقيقةً...

لا حقيقة في المدى الممتد بين حبيبتين سوى السراب.

أنا مشيئة هاجسي اللغوي

أعبر نحو قاتلتي مجازاً

ثم أقتلها مباشرة:

أحبك...

هكذا من غير تورية الكلام

مجرداً

ببساطة الفلاح حين يقول لامرأة:

أخاف عليك من زيتون ذاكرتي

حقول الشوك في شفتي

ومن لغتي

إذا استعصت عليه

ولم تجد سبباً لتقنع غيمةً لتمر فوق ترابه

وعذابه

ورؤاه.

أحتاج ما أحتاج منك

فتى أضاعته الطريق

وحيث عاد

وجدته شخصاً سواه.

رواية أخيرة عن الليل

يُذوى عن الليلِ

أنَّ الليلَ مدَّ يدا

إلى فتاةٍ تُدْفِي القلبَ إن بردا

إلى فتاةٍ

تُضيء الروحَ بسمئها

فتغسل الهمَّ والأوجاعَ والكمدا

خلعتُ كلَّ الخطايا من دمي فدنا

وحيٍّ من الغيبِ نحوي...

كان مُبتعدا

أدركتُ حينئذٍ ما اللهُ يهمسُ لي

على شفاهك

وانحلَّ الذي انعقدا

دنوتُ نحوكِ

لا سرُّ سوى شفةٍ تقولُ:

ليلك ممنوعٌ... وأنتَ ردى

وكان وجهك

ما شاءت ملامحه من الجمالِ

انتهى من حيثُ فيّ بدا

ما لي يدٌ أن هذا الليلَ يكتبني

وأنَّ شعركِ لما انسابَ كانَ يدا

تمتدُّ

تمتدُّ

حتى طوّقتِ عنقِي

لم أدريه

أعناقًا كانَ أم عُقدا؟!

رأيتُ أنّي حملتُ الليلَ

فارتعدتُ غمامةً في فيمِ

من قبلُ ما ارتعدا

صَمْتُ...

صَلَّيْتُ فِي سَرِّي

انطويْتُ عَلَى قَلْبِي

اشتعلْتُ

انطفأْتُ

احترتُ مُنْفَرِداً

فِي وَجْهِهِ الطِّفْلِ...

فِي كَفِّكَ

فِي لُغَةِ عَلَى الْعَيُونِ

وَفِي خَدِّكَ إِذْ شَهِداً

فِي ضَحْكَةٍ

لَمْ أزلُ فِي الْبَالِ أَرْسُمُهَا

وَعَمَزَةٌ لَمْ تَزَلْ فِي خَاطِرِي مَدَّداً

لَمْ يَخْتِمِ الْمَشْهُدُ الصَّوْفِيُّ رَقِصَتَهُ

لَأَنَّ ثَمَّةَ عَشاقًا

قَضُوا شُهَداً

هم الذين أسروا النخل فكرته
وشيدوا في متون المستحيل صدى
حسب الدراويش من هذا الغرام دم
لما أحب امتلا بالله

فاتقدا

أدور في جبتي ما شاء لي لهفي
ولا أقول انتهى ليل المحب سدى
لا بد أن دمي معناه؛

كن أملاً على الحياة،

وإلا لا تكن أبدا

مشيئت درب يقين في الجمال

لكي أفضي لغير الذي آمنث

فابتعدا

أوجزت حكمة قلبي حين قلت له:

كل الذي لم تجد في الحب...

ليس هُدَى.

صلوات لطفلة تعيش في جسدي

قليلاً

قليلاً بعد،

لم ينتهوا حزبا

ولم يغسلوا البارودَ والموتَ والرعباً

قليلاً

قليلاً يا ابنتي

الأرضُ لم تنزل

على كثرة القتلى

تفوحُ دمًا رطبا

وكم من مسيحٍ جاءنا

في صليبه سلامًا وحبًا

فاستوى فوقه صلبا

تنزلتِ الغربانُ

تعلمُ أنها ستعجزُ عن برهانٍ أن لنا قلبا

لذا سوف تبني في السماوات

غيمةً لطفلٍ

أضاعوا في ملامحه ربًا

كسّته صروف الدهر ثوبًا مرقعًا

وأوحت إلى الأيام

أن مزّقي الثوبا

هو الولدُ الخطاء

يصطادُ حظّه

بصنارةٍ حدياءٍ أنهكها جذبا

يُفتّشُ عن أمّ حنونٍ

وعن يدٍ

تذبُّ شظايا الموتِ عن جسمه ذبًا

ويسألُ عن بيتٍ بحجمِ ابتسامَةٍ

إذا اشتدَّت الغاراتُ

لم يهوَ منكبًا

وحيثَ التقينا كانَ حربيينِ عمرُهُ

وأمثالُه يحصونَ أعمارهم حربيًا

بدا أنَّه لم يبلغِ الحزنَ

بل رَمَوْا على رأسِهِ الأيامَ

حتى غدتْ شيبًا

وكانَ طفوليَّ الشقاوةِ ضاحكًا

فصبَّوا جرارَ الموتِ

في جسمِهِ صبًّا

لأنَّ دمَ الأطفالِ أكثرُ لذةً

نرى وطنًا يفتالُ أطفاله حبًّا!

عداء حول كف أبي

لأبي الذي ألفتُه شمسُ الله

فلاحٍ تُسمِّرهُ السنايلُ والمناجلُ

ثمَّ يعصرُ غيمةً من وجهه

فيصيرَ وجهَ الحقلِ أخضرَ

دعني

ففي القلبِ وحيٌّ غيرُ محتجبِ

يقولُ ما قد تقولُ النارُ للحطبِ

عن سدرَةٍ في تجاعيدِ الزمانِ

لها على جبينك

آياتٌ من التعبِ

وعن شقوقِ على كفيك ناشفةِ

تروي لطفلك

معنى لقمةِ السغبِ

وعن دموعِ عصياتِ

وعن جسدٍ يذوبُ يبكي...

بدمعٍ غير منسكبٍ

عن عقدةٍ أخبرتنا عنك

أنَّ أباً من رحمةٍ

يدّعي شيئاً من الغضبِ

تبعثُ ضوءك

عليّ أهتدي لبيدٍ

إذا تعثرتُ مدّت لي ولم تخبِ

صليتُ خلفك ليلاً كاملاً

وأنا -على بساطٍ اغترابي-

غيرُ مغتربٍ

أهجّئ اسمك آياتٍ مقدّسةً

لكي أبللَ روحي باسمك العذبِ

أنا أنا يا أبي

ما زلتُ كيف تراني طفل عينيك

صمتي منك أو صحّبي

وأنت فلاحٌ قلبي...

فأس حكمته

تجري يدك ندىً في قلبي الخرب

أجولٌ وحدي في سري

وأطرق في مرآة ذاكرتي

والعمرُ يهربُ بي

ألا أقبل رأساً همّه رجلٌ

شابثُ خطاهُ

وفي عينيك محضُ صبي؟!

أحبُّ شيباتك الحسنَى...

وأسألني:

هل يستحقُّ مثلي...

كي تكونَ أبي؟!

غريبان ومقعدٌ واحد

أحاولُ ألا أكونَ غريبًا

سأفتحُ قلبي وأمشي

وأمسكُ بنتًا -تحاولُ مثليَ ألا تكونَ الغريبةَ-

من يدها وأقولُ:

تعالِي لنجلسِ مثلَ صديقينِ

في مقعدٍ واحدٍ

وتقولُ:

تعالِ لنشربِ غريبتنا من فيمِ واحدٍ

أنا أدعي أنني ابنةُ يومك

أنتِ الشقي الذي يكسرُ الوقتَ

في جملةِ حائرةٍ

أنا لا أحبك

لي شهوةٌ عابرةٌ

أحاولُ ألا أكونَ شقيًّا

سأكتبُ لامرأةٍ من خيالِ قصيدةِ حبِّ

لتسهرَ ليلتَها في القصيدةِ:

«يعرفُني شاعرٌ أحمقُ

لا يريدُ سوى أن أكونَ قصيدتهُ الماكرةُ».

أنا لي ترابٌ وأغنيةٌ من مرايا

إذا ابتسمتُ طفلةٌ لي؛ ابتسمتُ

إذا التفتتُ نحوَ قلبي؛ التفتُ

أنا لا أحبُّك

لكنني

قد أفتتُ قلبي لبسمةِ الساهرةِ.

السَفَرُ الَّذِي اعْتَادَهُ

مَسَافِرٌ - قَبْلَ أَنْ تَبْكِي - وَمَا بَدَأَ

أَهْدَتْهُ دَمْعَةٌ حَبٌّ يَوْمَهَا فَرَأَى

وَعَلَّمَتْهُ جَنُونََ الطَّيْرِ

مَدَّ لَهَا جَنَاحَهُ

وَطَوَى فِي قَلْبِهِ سَبَأً

مَذَّ قَالَ لِلنَّارِ: هَذِي دَمْعَتِي

فَخَذِي مِنْهَا الَّذِي شِئْتِ

نُورُ الدَّمْعِ مَا انْطَفَأَ

قَالَتْ لَهُ: خذِ رُؤْيَ الْأَطْفَالِ

قَالَ لَهَا: خذِي فَمَيَّ حِكْمَةً

صَدَّتْهُ؛ فَاثْكَفَا

وَكَانَ يَقْصِدُ مَجْنُونًا يَطِيرُ بِهَا

وَحَازِرًا مِنْ فِخَاخِ الْقَلْبِ أَنْ يَطَأَ

وَكَانَتْ الْبِنْتُ حَوْلَ الطَّيْنِ رَاقِصَةً

يذبُّ عن روحها التفاحَ والخطأ

تشتاقهُ وهي تدري أن في يدهِ

يغفو ملائِك

وتصحو غيمةً ظمأ

يشتاقُها وهو لا يدري

ويتبعُها

تمشي لتتعبَ أو تبكي لتتكئ

خذيهِ يا ابنةَ قلبي صحتُ من وجعي

لكثُرِ ما عبروا

من قلبي اهترأ.

لو كان لي

بالقبلة انتصر الحبيب على حبيته

كما...

بالقبلة انتصرت حبيته عليه

إذن

بالقبلة انتصرا

إذ غافلا عين الطريق

وفاجأ حبا كسيرا

كان يجمع عطره من شارعين مشاهما ظلان

كانا مثل حظهما استعدادا جيدا

هو أيقظ العطر المخبأ في زجاجته

هي احتارت به من أي لون سوف تدخل قلبه

هو لم يفكر باسمه المائي

واختار القميص الهادي البحري

كي يخفي ارتباك يديه عن دمها الشهي

هي استحمّت بالمواعيد المؤجلة

ارتدت أحلامها

ومشت على إيقاع خطوتها

تقيس طريقها بأنوثة الأشياء حين تمرها

هو كان يضبط نبض ساعته بدقة كعبها

نسق جنوني هي الأنثى التي تمشي على ألق الوجود

كأنها هي وحدها خلقت لهذي الدرب

تعرف كيف تنقل خطوتين على تردد قلب عاشقها بزهو غزالية

سيقول -يوماً ما- لها:

لو كان لي قدم تشاء طريقها

لعبرت هذي الدرب نحوك

لا لشيء

غير أن أمشي إليك

وأستعين بلون عينيك البعيد

على انكساري.

ضياغ... ثم ألقاك

فيك ما فيك،

رقّة في اختيالك

فاسمحي لي أن أنتمي لخيالك

ودعي زندك الحبيي

احتمالاً لحياة

تدبّ في صلصالك

أنتِ يا فكرة تدقُّ برأسي

عن دم نرّ مرّة من رمالك

أنتِ من آمن النخيل بعينيها

فصار اخضراره من خصالك

وأنا

حينما وجدتك مجنونة قلب

ما كان قلبي كذلك

كنتُ

لكنني ادّعيثُ وقارًا وهدوءًا

وداخلي متهايك

قلتُ في خاطري:

مراهقةٌ تلهو

وحبُّ المراهقاتِ مهالك

قلتُ:

يومينِ ثم تنسى وأنسى

والصبايا وعودهنّ لذلك

هكذا صرثُ دون وعيٍ وقصدٍ

أتمشّي إلى دمي

من خلالك

كان لا بدّ من ضياعٍ كبيرٍ

ثمّ ألقاكِ

من صدّي خلخالك...

ثلاث نبوءاتٍ لقلبٍ واحد

يختارني قمرٌ على شباكِ بيتك

كي أكونَ فتاكِ

أعطيني يديكِ لكي أحبكِ مرّةً أخرى

وسيري

في خيالِكِ ما استطعتِ

لأنني سأكونُ منتظرًا هنالكِ عندما تصلينَ

أجرحُ صوتي الرمليّ

أمشي في عراءِ يديكِ

أصرُخُ من دمي:

في القلبِ مُتَّسَعٌ لأيِّ خطيئةٍ أُخرى

سوى ألا أحبكِ

فامتحنِّي أيها الحبُّ

امتحنِّي...

كي تَرى ثقتي بوردةِ نرجسٍ نبتتْ وحيدةً

آمنتُ باللغةِ المصَابَةِ بالبكاءِ وبالأسى

آمنتُ أنّ هويّتي لُغتي وحزني

كلّما ركضتُ بي الأيامُ

أدرِكُ أنّ شيئًا ما يضيعُ؛

الذكرياتُ

وجوهُ من مرّوا

ومَن مرّوا

وأسماءُ الأماكنِ

والأماكنِ

هؤلاءِ أنا

أنا أمسي وذاكرتي

وأخطائي الكثيرةُ والقليلةُ

لكن الغدُ ذنبُ عمري

واقفًا خلفَ الجدارِ

بيندقيتهِ

ليقتلَ ذكرياتي إن سهتَ لُغتي بلحظتها

فيا غدًا!

خذ نصيبك

ما أمرت به

ودع لي ذكرياتي

دع لي الإيقاع في قلبي

فلمستُ كمنجاةً تكلّي لتصلبني على خدّ تشققٍ وحدهً وبُكا

أنا ذاك التأوّه والتولّه في القصيدة.

كنتُ طفلًا حين شدّ البحرُ قلبي مرّة

«ستنصيرُ بحرًا»، قال:

فاتبع زُرقتي

صدقتُهُ وتبعثُ صوتَ الماء في جسدي

فصار الكونُ أزرق

هكذا سأصيرُ بحرًا؟!»

هادئًا كالموتِ صارَ

وباردًا جسدي

السماءُ بعيدةً

والأرضُ ثقبًا أسودًا اتسعت وضاقت فجأةً

وأنا ككيسٍ فارغٍ في الريحِ

لا أعلو فأنجو من غلافِ الكوكبِ المائيِّ

لا أهوي فيكنسني من الطرقاتِ حرّاسِ إلهيَّونَ

ها أنا عالقٌ

رئتاي تمتلئانِ ملحًا

صرْتُ أثقلَ

لم أعدُ أقوى على نَفسي

أرى ظلًا سيعبرُ من خلالي نحوَ غايتهِ

أرى حوريَّةً تدنو فتخطئُ قبلةً منِّي

أرى عينيَّ حمراوينِ من رملِ الحكايةِ

صرْتُ بحرًا؟!!

مدَّ لي رجلٌ عصاهُ

علقتُ فيها

فانتشلتُ

ولم أصر...

...

يا أيها البحر

اختبرني واغوي قلبي مرّة أُخرى بزرقتك البعيدة

يَدُ تَصْلُحُ لِلطَّرِيقِ

يَوْمَ صَافِحْتَنِي وَابْتَسَمْتِ

رَأَيْتُ يَدِي وَرَدَةً

تَتَفْتَحُ شَيْئًا فَشِيئًا

وَلَمَّا ابْتَعَدْتِ؛ ذَبَلْتُ

وَوَضَلْتُ يَدِي وَرَدَةً

قَلْتُ: فِي الْغَدِ حِينَ تَصَافِحُنِي

سَأَكُونُ يَدًا

سَأَمُدُّ لَهَا جَسَدِي كُلَّهُ

كِي تَصَافِحَهُ

كِي يَصِيرَ حَدِيقَةً وَرِدٍ

وَإِنْ غَادَرْتُ

سَأُظَلُّ حَدِيقَةً وَرِدٍ

يَمُرُّ بِهَا مِنْ يَمْرُ؛

فَيَعْرِفُ أَنِّي أَحَبُّ

وَأَنَّ الْغِيَابَ رَدِيفٌ أَكِيدُ

لهذا الذبول

تبعثُ دمي

كنتُ أنزفُ من شفّتيكِ اغترابًا

وأسألُ عنكِ فمي

تائهاً كنتُ

أعرفُ أنّ لقاءكِ ضربةٌ حطُّ

وأنّ استماعكِ للشعرِ محضُ مصادفةٍ ليسَ أكثرَ

تفضيلكِ الشايِ ليسَ مزاجًا كما تدّعينَ

ولكن دافعًا عن البسطاءِ

لذلك

أعددتُ شايَ المساءِ بنفسِي

ولما اعتذرتِ

دعوتُ يدي كي تشاركني وحدتي

في مسائي الطويلُ

لي كما لكِ

حُظٌّ وفيرٌ من البحرِ والرملِ والذكرياتِ

طريقٌ طويلٌ من الركضِ

عشبٌ قديمٌ يداوي سعالَ المسافةِ

صوتٌ شجيٌّ يقولُ:

مصائبٌ بحمى الحنينِ

اذكروا قربَهُ اسمَ حبيبتهِ؛ يُشَفِّ

ليلٌ يدسُّ رسائله في البريدِ ويرحلُ

يعرفُ أنّ العناوينَ وهميةٌ

والمسافةُ تُنسى الرسائلَ وجهتها

لكن امرأةٌ أخبرتهُ؛

تدلُّ الرسائلُ أصحابها دائماً

فاتبعها

تكنُ لخطاكِ الدليلُ.

أنا

ممسكٌ بحبالِ الرياحِ مخافةً أن أهتدي لسواكِ

أنا

عائِدُ من حروبٍ تطيلُ المكوثَ برأسي

أنا

ذاتُهُ المترددُ بينَ الحبيباتِ واللاحبيباتِ

يخلعُنَ عنه الهدوءَ المعششَ بينَ أصابعِهِ

والجنونَ المخبأَ في ذاتهِ

يا أنا أتعبثُك البلادُ البعيدةُ عن ناظرِكَ

الفتاةُ التي تكبرُ الآنَ بينَ يديكَ

لترحلَ في الغدِ

لا يدها غصنَ لوزٍ

ولا عينها زعتراً أخضرَ

الآنَ تنسى الحكايةَ

تنسى البلادَ التي زرتَها

والوجوهَ التي ألفتك وداريتَها

ثم تذكرُ عينيكَ غائرَتَينِ دمًا

تطفوانِ على بركةٍ من حليبٍ قديمٍ

تشدانِ وجهكَ نحوَ الترابِ

تقولان:

لا ليل ينتظرُ الراحلينَ

ولا وجهة

لا وصول.

ظَلَّ ناقص... روح زائدة

بعيدًا إليك

أشيرُ بقلبي وأتبعُهُ

شاعرًا عادَ للتو من نفسه المنهكة

أحاولُ أن أتعلقَ في ضوءِ خصرِكِ

لكِنِّي -مثلَ كلِّ الزجاجِ-

تسرَّبتِ فيّ ومني

نفذتِ إلى عَدَمِ خالصِ

وحيثُ وقفتُ أمامي

ذكرتُ الندوبَ التي

قالها صوتُكِ المطمئنُ

على شفطي المربكة.

خرجتُ إلى عالمِ ضيقِ

من فُرَى لا حدودَ لها

كنتُ أعرفُ أنَّ الهواءَ ثقيلٌ على رئتِي إن خرجتُ

وأعرفُ أنّ الجدارَ الذي كنتُ أسنّدهُ

كان يسندني في الحقيقةِ

لكنني شئتُ قلبًا بعيدًا

أقلّ سلامًا

وأكثرَ صمتًا

لأعبرَ غربتي/المعركة.

لأنّ دمًا واحدًا لم يجفّ

جرحتُ فمي بالقصيدةِ

لأنّ فمًا واحدًا ليس يكفي

حشدتُ صراخَ دمي

وانفجرتُ

شظايا وأفواهَ

تصرخُ

تصرخُ في ليلها المَيّتِ كي تستعيدَه

لأنّ الصلاةَ وحيدةَ

توضأتُ باسمكِ

ثم وقفتُ طويلاً

طويلاً

أتمُّ صلاتي الوحيدة.

بعيداً إليك

أتيثُ

لأشتقُّ من راحتك كلاماً ونخلاً

تقولين:

بيضاء هذي الطريقُ

أقول:

خذي من يديّ طمأنينةَ الكلماتِ

اصطفي لي مفردةً وامنحها القداسةَ

تأتك في هيئتي

غربةً خارجَ النصِّ

أو غربةً داخلَ النصِّ

عند الحديثِ إلى النفسِ

عند الحديثِ عن النفسِ

تَأْتِكِ فِي هَيْئَتِي

مفردة.

وجوهي الكثيرة في الماء لا تنتهي

وأنا خارج الماء وحدي

أحملق فيها جميعًا

وأسأل:

كيف اجتمعنا كأننا معًا صورة واحدة؟

وجوهي الكثيرة في الماء لا تنتهي

وأنا خارج الماء وحدي

وحيثُ وضعتُ يدي فوق وجهي

تساقطت مثل بناءٍ قديمٍ

على نفسه البائدة

سيجيءُ شتاءٌ إلى شجرٍ واقفٍ في الشوارعِ

أو نائمٍ في الصفيحِ

يجيءُ مع الدم حينَ تراه البلادُ غريبًا

يرى نفسه في المسيحِ

صليبا على بابها

أو حبيبا

تعالى إليه فتمّ لسان

يجزجره عسس خائفون على ربهم

من فم جاع

ويدي باردة.

هكذا يخرج الجسد الميت من أرضه

ظله ناقص

روحه زائدة.

رحيلٌ إلى آخرِ النخلِ في عينيك

كان المساءُ اعتياديًّا

كأيِّ مسَا

وكانَ ما كانَ

خطوُ يشبهُ الجرسا

مشى إليّ...

مشى بي

ثم ضيَّعني

وقال يا ريحُ زوري قلبه اليِّسا

فتحتُ نافذةَ المعنى على هوسِي

لأنَّ ثمَّ فتاةٌ تُشعلُ الهوسا

تقولُ لليلِ: خذ ما شئتَ من ضحكي

واتركِ لحرمةِ ثغريِ قبلتَيْنِ، عسى...

عبرتُ قبلكَ ظلًّا

فاطمأنَّ إلى عطريِ الشهيِّ

ولما ضمّني التّبسا

فسال في جسدي

واختاره لغةً من الترابِ

وفي أحداقِي انعكسا

تبعثُ دمعتَهُ الحمراء؛

حين جرّث تصفّحتُ عمرهُ القاسي

أسى فأسى

في غربةٍ كلّما حثّ عليه بكي

في وحدةٍ حينما ضاقتُ به ائتسا

ركضتُ بينَ شفاهي

باحثًا عبثًا

عن قبلةٍ تخزُّ اسمي

كلّما نعسا

كان المساءُ حزينًا

كانَ يرغِبُ أن

ثروّضي بعناقٍ حزنهُ الشرسا

أن تطفئي ضوءَ هذا الخوفِ

أن تلجى لعتمةٍ فيه

ضوءًا حافيًا سلسا

وها أنا عاقدٌ قلبي على حجرٍ

من الكلامِ

نبيًا يألُفُ الخرّسا

أسوقُ خلفي عمرا مالحا

ومعي

من نخلِ عينيكِ ما أحتاجُ مؤتتسا

من شعركِ الخيلِ

عداءً على تعبي

ألوذهُ

كلّما الشوقُ البعيدُ قسا

لأنني

لم أجد دربًا لتركضَ بي

وجدتُ صوتكِ يسري في دمي قبسا

فقلتُ أُعبِّرُ هذا الليلَ متخذًا

من لونِ عينيكَ

ما أغوي به العسسا

لكنهم سلبوا دربي وبوصلتي

كيلا أعودَ

وقالوا راح وانغرسا

مخافةً أن يضيعَ العمرُ

ضعتُ أنا

سُدَى كفكرةٍ شيطانٍ بها يئسا

وحينَ لم ألقَ مني غيرَ حنجرتي

أثرتُ صمتًا إلهيًا لأنبجسا

من الرمادِ الذي عبّأتهُ بفمي

حتى نسيثُ كلامي في فمِ طمّسا

أنا كلامي

صراخي

بُحتي

وأنا فمي إذا قالَ

والسرُّ الذي همَّسا

حرَّرتُ صوتي من حبلِ الكلامِ

لكي أصيرَ أكثرَ موسيقى

أقلَّ أسي.

فقدت فمي في حديثٍ قصيرٍ مع الحبِّ

تنازل عن حقه في الصراخ

فلم يبقَ في فمه كبرياء

تنازل عن حقه في الدموع

فخانته عيناه عندَ البكاء

فقدت فمي في حديثٍ قصيرٍ مع الحبِّ

كان دمي طازجًا -لم يزل-

والهواءُ يُحرّضُ قلبي على أن يطيرَ

يراودني كي أحبَّ

يدسُّ غوايته تحتَ جلدي

فينبتُ ريشٌ صغيرٌ

ويرشحُ من رثتي وجعٌ مشتهى.

ها أنا بعد عمرٍ

أسلمني طائعا ضائعا

ليجرّدني الحبُّ مما أحبُّ

ليتركني عائماً في دمٍ معتمٍ

حائماً في عواصفٍ عمياءٍ مثلي

وحيداً

فقيداً

لأنظرَ نحوي فأبصرَ جسمًا تأكل

سلسلةً قيّدهُ إلى الأُمسِ

لكنّ قلبي الذي اختاره الحبُّ

ما زال طفلاً عليه

طرياً

وهشاً

خجولاً -كقلبِ أبي-

وسريعَ البكاءِ

فقدتُ فمي في حديثٍ قصيرٍ

تساقطتُ من غيمةٍ في خيالكِ

ثمّ نموتُ مع العشبِ خلفِ خطاكِ

ومتُّ كما ينبغي

دون صوت يُعرّفني

دون وجهٍ ولا وجهَةٍ

في البعيد البعيدِ

هنالك حيثُ الوجوه مرايا تُناسخُ أشكالها

والخطى تائهاتُ الخطى

لا تدلُّ ولا تهتدي

والتقيتُك

باردةً قدمي

وقلبي

وكنتُ أسوقُهما متعبًا منهما

دون وجهٍ ولا وجهَةٍ

والتقيتُك

هذا التراب الذي أشتهيه

أخافُ ضياعَ بنيه

وهذا الحنين الذي كدتُ أنساهُ

ظلتُ تلاحقني في الخفاءِ خطاهُ

أحاولُ أصرخُ

يا ربُّ

هذي الحصاةُ التي وضعتها الحياةُ بحنجرتي

لا تسدُّ الهواءَ فتخنقني وأموتُ

ولا هيَ تسمَحُ لي بالصراخِ

أنا يا إلهي بحاجةٍ هذا الصراخِ كثيرًا

وأكثرُ من حاجتي للهواءِ

فقدتُ فمي في حديثِ

ولم أنسَ صوتي

استعرتُ لسانًا جريئًا ليحملَ عني عناءَ الكلامِ

ولكنّه لم يقلُ ما أريدُ

فصرنا عدوينِ في غربَةٍ وانتظارٍ

وصارَ لغربتنا فتنةٌ مشتهاةٌ تؤدي إلى الموتِ

لكننا نتغافلُ

حينَ نرى دَمنا اسودَّ من خوفِهِ

ونرى خبزَ أعمارنا

يتعقنُ

في عتمةٍ من ترابٍ قديمٍ

فنشعُرُ أنّ المكانَ

يلائِمُ طقسًا لنعبَرَ منه

إلى عدمٍ وانطفاءٍ

فقدتُ فمي

فأمّحت صورتي ونُسيبتُ

وصوتي تلاشى من الذاكرات

ولكنّ ثرثرةً لا تملُّ ولا تتوقفُ

تطحنُ جمجمتي

من أكونُ أنا؟

صورةً وصدى؟

عابرًا في هلامٍ من الذكرياتِ القصيرةِ

أم خالدا؟

من أنا؟ من أكونُ؟

ضالًّا وتيهًا يسيرانِ بي

أم هدى؟

عبدَ نفسيَ أم سيِّدا؟

دلّني يا دمي

أنتَ تحمِلُ تاريخيَ الأزليَ

شريط الوراثةِ

مستقبلي

ما أحبُّ وما لا أحبُّ

وقائمةَ الأمنياتِ

وتحمِلُ أبنائيَ القادمينَ من الغيبِ

في سرِّك الرحبِ

فارفعِ حجابك عني

وأوحِ

أنا ابنك في الأمسِ يا والدي

وأبوك غداً

فانكشف لي

لأعرفَ نفسي

أنا مذ فقدتُ فمي

صرتُ نصفًا يدورُ على نصفِهِ

خطوةً باتجاهِ يؤدي إلى الجسرِ (*)

حيثُ اتساعِ الحكاياتِ دون الوصولِ

وأخرى تؤدي إلى خربسٍ وعماءٍ

فقدتُ

وكانت يدي تتبع الماءَ

يسقطُ قلبي على الرملِ

في لحظةٍ من تخلُّ

فأتركهُ كي يعودَ إليّ كقطِّ أليفٍ

يدلُّ الطريقَ إلى بيتِهِ

كانَ يدركُ أنّ يديه ضروريّتانِ مع الريحِ

لكنّه -مثلَ بعضِ القلوبِ-

ضعيفٌ أمامَ اتساعِ عيونك في غفلةٍ منه

فاتسعي

وضعيّف أمامَ السقوطِ

ولا يتعلّم

تدهشهُ لحظةٌ لم يعشها

تجارِبُ خاسرةٍ مسبقًا، كيف طعمُ الخسارةِ فيها؟

ويدهشهُ الحبُّ

يغرِزُ في لحمه الغضُّ أشواكهُ الناعماتِ

فيا قلبُ

يا من ترى الدهشةَ المشتهاةَ هلاكًا

وتتبعها

قف قليلًا

تنصّت على صوتِ حديثك

واثبّعه أو لا...

سأعرفُ حينئذٍ

-حينَ تأتي بغيرِ فيم-

ما أقولُ

وكيفَ أقولُ

بأني كقلبي

فقدتُ فمي في حديثٍ قصيرٍ مع الحبِّ

ثمَّ

فقدتُ فمي في حديثٍ قصيرٍ

فقدتُ فمي في حديثٍ

فقدتُ فمي

.

.

وفقدتُ...

(*) أولئك من يملكون الجراءة

من يقفزون منَ الجسرِ

في لحظةٍ يائسةٍ

وحدهم من رأوا

أنَّ جسرًا مسجىً على الماء

ليس لزومًا

بأن يوصلَ الناسَ لليابسة

وحدهم من رأوا وجهتهُ

قَبْلَ أَنْ يَلْمَسَ الْمَاءَ أَجْسَادَهُمْ

رَأَوْا الْحَقِيقَةَ

رَأَوْا دُونَ عَيْنِ طَرِيقِهِ...

رَأَوْا أَيْنَ يُوَصِّلُ...

مقاطع

(١)

رأيتُك تخرعون الجنونَ

فلا تُكرى حبك المعلنا

رأيتُ كثيرا

ولم أدر هل ما رأيتُ المحالَ

أم المُمكننا؟!

وحيثُ ضحكتِ

استحالَ المدى ضحكةً...

والزمانُ الحزينُ انحنى

فكيف لعينيك أن تدمعا

وكيف لقلبك أن يحزننا؟!

(٢)

رماديون قهوئنا الأمانى

نذوبُ حلمنا فيصيرُ مرًا

وشفافونَ يجرحنا خيالً
لننزفَ ملءَ هذا الجرحِ شعرا
ومائون نرقصُ حين نبكي
فيذرف رقصنا البكاءَ جمرا

(٣)

أحملُ قلبي وأتبعُ القلقا
كشاعرٍ في مجازهِ انزلقا
تضيغُ من خطوتي دلالتها
ويستردُّ الضياعُ لي طرقا
معاركي في الحياةِ
لا سببٌ يدعو إليها
أخوضها نَزَقا

حسبي دمٌ في قصيدتي

شبقُ

تشدهُ خيبةٌ لدرِبِ شقا

حسبي من الليلِ أنْ أغنيةً

تعلّقت بي كي تُونِس الأرقا

تراقصت في دمي حكايتها

إيقاعها خصرها إذا اتسقا.

(٤)

صمت

وحيدان

اضواء وأرصفة

وذكريات وموسيقى تحكّ يدي

شهيةً هذه الضحكات

يا امرأةً مائيةً الحبّ

يا قديسةً الجسدِ

لي قهوةً قربَ بحر الملحِ

لي شجرٌ من الغوايةِ

لي قلبٌ بلا بلدِ

هذا الحنين إلى عينيكِ

قافلة

وكلّ خطوٍ إلى عينيكِ لم يَعُدِ.

(٥)

سيأتي طارقاً بكِ مطمئناً

ويخلع صوته في بابِ حبِّك

يسلّم

أدخليه

يقول

أصغي

يضيء يقينه في أمنِ ريبك

يفكّ ضميرتيك بلا ارتباك

وينسلُّ روحه من خيطِ ثوبك

سيسري في خلاياك اشتهاً

ويخرجُ منك مفتوناً بقلبك.

(٦)

أخافُ من فجأةِ الأيامِ توقظني

فلا أرى غيرَ ما أسلفتُ في الأمس!

وحدي، ومنتبهٌ حولي

ولا أحدٌ

غيري سوى جسدي المزروعِ في رمسي

أعدُّ مقتبلَ الأيام؛

هل نبتت روعي؟!

وهل غادرتني خلسةً نفسي؟!

(٧)

ماء على قدميكِ

الماءُ مفتتنٌ

بأيّ تعويذةٍ تمتتِ فانسحرا

متاهةً كان هذا العمرُ

كان سديّ

وباهتًا كان ظلي

كان ليس يُرى

حتى التقيثك في أرض معطشة

فكنت رحمتها الزرقاء والشجرا.

(٨)

صرخت بما في دمي من كلام

بما ضج فيه ولم يحتمل

بما في ذراعي من لهفة

بما في من خطوة لم تصل

بما في العيون إذا قالتا

بما في الشفاه إذا لم تقل

تقدمت...

كان عناقي كبيرا كحبي

وكان حيائي أقل.

(٩)

أسندت ظهري إلى سور

وقلت له:

ظهري إليك

وصدري مشرعُ البابِ

أنا تعلّمتُ من غدرِ الخناجرِ

أن أختارَ من شارعِ الأيامِ

أصحابي.

(١٠)

العمرُ فحَّ خساراتِ

نسيرُ له

ونحنُ نعلمُ ما خلفَ الخساراتِ

في كلِّ خطوةٍ غيبٍ ثمَّ أسئلةٌ

وفي السقوطِ فقط...

نلقَى الإجاباتِ.

1. [الغلاف](#)
2. [عداء حول كّف أبي](#)
3. [إهداء](#)
4. [فاتحة](#)
5. [وحي صاعد بالحبّ](#)
6. [إلى أبيه في جنازته](#)
7. [أماكن مفتوحة لأسئلة مغلقة](#)
8. [حزن قديم للعام الجديد](#)
9. [رواية أخيرة عن الليل](#)
10. [صلوات لطفلة تعيش في جسدي](#)
11. [عداء حول كّف أبي](#)
12. [غريبان ومقعد واحد](#)
13. [السفر الذي اعتاده](#)
14. [لو كان لي](#)
15. [ضياء ثمّ ألك](#)
16. [ثلاث نبوءات لقلب واحد](#)
17. [يد تصلح للطريق](#)
18. [ظل ناقص روح زائدة](#)
19. [رحيل إلى آخر النخل في عينيك](#)
20. [فقدت فمي في حديث قصير مع الحبّ](#)
21. [مقاطع](#)